Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القصيدة بموضوعها المثير ، وإيقاعها الجميل ، سواء أكان صاحبها هو الذى حملها ، أم عبرت البحر بنفسها ، شقت طريقها إلى أسماع وقلوب جمهرة المسلمين فى الأندلس والمغرب على السواء .

ويذكر صاحب الذخيرة السنية أن أبا البقاء أنشدها بمناسبة نزول محمد الغالب سلطان غرناطة عن عدد كبير من القواعد والحصون الأندلسية للملك قشتالة عام ٦٦٥ هـ = ١٢٦٧ م ، وهى أحداث ثابتة تاريخيًا ، أى أن أبا البقاء قالها وهو فى الخامسة والستين من عمره تقريبًا . ومن المؤكد أن السلطان ضاق بها ، وعمل على حصارها ، فهى تندد بالقواعد التى سقطت على عهده فى يد المسيحيين ، وتستثير جمهرة المسلمين فى الأندلس وخارجها ، لاستعادة ما ذهب والدفاع عما يوشك أن يذهب ، والقواعد الكبرى التى ندبها فى قصيدته هى : إشبيلية ، وقرطبة ، ومرسية ، وشاطبة ، وجيان ، وكلها سقطت بين عامى ٦٣٥ و ٦٥٠ هـ = ١٢٣٧ - ١٢٥٢ م ، إلى جانب مئات من الحصون والقرى ، وإذن فهى تدينه دون أن تعرض له ، وتجعله مسئولا دون أن تذكر اسمه ، وليس ثمة شك فى أن أحفاده كانوا أحرص منه على عدم تداولها بين الناس ، وكان ابن الخطيب وزيرًا أول لهم ، وليس بوسعه أن يضمن كتبه شيئًا لا يرضون عنه ، ولا أرى سببًا آخر لإهمال ابن الخطيب لها ، رغم الترجمة المستفيضة ، والأشعار العديدة ، التى خص بها أبا البقاء ، ولا يرد فى الخاطر أنه لم يسمع بالقصيدة ، وهى جميلة تسترعى الانتباه ، وتعلق بالذاكرة ، وكانت متداولة بين الناس ، وابن الخطيب ذواقة فى الشعر ، موسوعى الثقافة ، ومثلها لا يخفى عليه .

كان أبو البقاء مهيأ نفسيًا وثقافيًا لأن يبدع قصيدة حول هذه القضية ، بمثل هذا المستوى ، فقد درس على أستاذه ابن زرقون قصيدة ابن عبدون فى رثاء بنى الأفطس ، وعاصر ابن الأبار صاحب قصيدتى الاستصراخ ، وكل هذه القصائد درسناها من قبل ، وارتبط عاطفيا بمعظم المدن التى سقطت ، إن لم يكن بها كلها ، وله فيها ذكريات من أيام الطلب أو ما بعدها ، فلا غرو أن تفجرت أبياته من نفس كليمة وفؤاد محزون .